

رأيات :

(١) التفكير المغربي الحديث

قد يرى الناظر في تاريخ المغرب الحديث « تاريخه العقلي » شيئاً من التطور ومحس ببعض الانقلاب الذي نشأ عن انبثاق عصر النهضة الحديثة ، ولقد يحار المرء اذا رأى هذا التطور السريع وهذا الانقلاب الذي بغته بغتاً يذهب غير مذهبه الذي ينبغي له ويسير في غير ما هدى ولا رشد ، ذلك أن التفكير الحديث تجرد عن التعمق في بحث المسائل واستقصائها ولازم الضروريات والظواهر التي لا تحتاج الى بحث عميق وجهد الفكر واتعاب النظر ، ولقد نجم عن ذلك اندثار بعض المسائل العالية والتاريخية والادبية ونشأ أيضاً جمود في الفكر وخمول في العقل وهذا شيء - بلا شك - لا تحمد له عقبي وسيحدث عنه تقهقر وانحطاط في التفكير المغربي السديد من حيث انا نريد ترقينه الى أوج الكمال والذروة العليا .

ولقد يستطيع كل من يلم بشيء من تاريخ المغرب وتاريخ بعض رجاله ويعرف تفكيرهم العميق ان يلقي نظرة عجيلى وأن يقارن مقارنة بسيطة بين التفكيرين فبلا شك سيجد البون شاسعاً والفرق ظاهراً بيناً .

يرى المقارن ان لا نسبة بين هذين العصرين فينما يرى العصر القديم الذي يسمى - بحق - عصرًا ذهيباً قد انتج من المفكرين من تطأطأ لهم الرؤوس امثال الفيلسوف الكبير عبد الرحمن بن خلدون أول من بحث في علم العمران والاجتماع (المتوفى بمصر سنة ٨٠٨ هـ) وغيره ممن يفخر بهم العرب على العموم والمغرب على الخصوص اذا به يرى هذا العصر الذي تيسرت فيه اسباب التقدم والنبوغ وترجمت فيه الى اللغة العربية علوم وفنون لم تكن بها من

يقال باع وشري بمعنيين متضادين في كل واحد منهما غير أن اشترى لا نعرفه الا بمعناه المعروف وضده ابتاع ، والشاعر هنا يقصد ابتاع باع وهو الصحيح ان أراد أن يستقيم له المعنى .
دحرت (موران) لما جاء منتقداً

دحراً أحل به في جحفل لجب
الصواب حل في المكان ولا بأس أن تقول حل به والباء للتعدية كما تقول حللت بصاحب في المنزل ويقال اذا عديته بالهمز أحللتها المكان وأصله حل فلان المنزل الفلاني هذا هو المعروف ، وأما أن يقول شاعر (كشاعرنا) أحل به فغلط يجب التنبيه له وقد سبق للشاعر الشنقيطي أن وقع في مثل هذا الغلط وأبدينا له ملاحظتنا بتواضع فأرغى وأزبد وانطلق يسبنا ، ويقول علل :
بني الجزائر هبوا من رقادكم * ولتستضيئوا بنور أزهر الشهب والنور مضاف الى أزهر فكان ذلك مما يسوء الخليل بن أحمد وان كانوا جوزوه من باب الزحافات ولكن النحويين أصحاب الاجرومية لا يغضون عن قوله : « ولتستضيئوا » لانهم نصوا - والعهد عليهم - على أن العرب لا تقول : لتخرج ، لتقم ، لتفهم ، الا على وجه الندور والشذوذ والشاذ لا يتبع وقد يركن اليه من يريد العناد وطول الجدل .

ولعل قصيدة في الشباب الممثل منسجمة اللفظ رائقة السبك وقد استوقفتني قافية هذا البيت :
آه ! لو دام ذلك العزم فينا * لم تكن في الورى بلاد هجين (بلاد هجين) ! لقد آمنا بسحر الشعر وكفرنا بهذه الهجنة ، وان كان المجازيون البداء يسيعونها باخلاقهم المتسعة وتجاوزهم فوق الحدود ، ويقول في مقطعة (السلم) :
فيغدو نبي السلم قائد فيلق * ويصبح سفر القدس وهو سفير لم ندر ما القصد بالشرط الاخير وأي معنى أثبت فيه ، بيد أنه لولا الجنس الظاهر فيه لتداعى ركننا فركنا حتى أن الوزن كاد يفر فراراً وعلم ذلك عند منشئه الفاضل .

هذه نظرة عجيلى في شعرنا بغتنا ونؤمل أن نرى ديوانه مطبوعاً لنتدارك بالنقد ما فات وليس المتدارك بفات .

(ابن عباد)

قبل بفضل ما قام به اخواننا الشرقيون نحو لغتهم الكريمة اذا به يرى هذا العصر خلواً من كل مفكر ، خلواً من كل من يرسم خطة لتفكيره ، خلواً من كل من يجعل مثلاً أعلى أمامه ويسير بكل تؤدة نحوه .

ولقد يخرج الباحث بمخلاصة أرى أن لا بأس في الإشارة إليها ذلك ، ان المفكرين القدماء كانت لهم هم عالية ولم تخدمهم الالتفات الفخمة وكانوا يرون انهم يؤدون رسالتهم في الحياة فيجب عليهم إذا الاخلاص في وظيفتهم التي كلفوا بها وكانوا يرون انهم يسدون فراغاً لو لم يعملوا فيه يجد لانهم ركن من اركان شعبيهم ولكنوا مسئولين ، امام الله والناس وأمام ضمائرهم ، أما رجال هذا العصر - رجال النهضة كما يقولون - فقد تقاعست همهم واكتفوا بهذه الخثالة البسيطة وظن كل من نشر مقالة أو قصيدة انه أدى ما توجب عليه الانسانية وانه المفكر الوحيد... وكثر - والحمد لله - المفكرون والفلاسفة واصحاب الاراء الجديدة وظلوا يمتنعوننا باجرائهم الشيقة النادرة فهذا ينقد والآخر يرد والثالثة يكون حكماً فصلاً بين الخصمين... فالحمد لله على قلة الصحف !

على اني اعتذر عن هؤلاء الاقوام - سامحهم الله - بانهم اقتدوا ببعض من يدعون التفكير في الشرق ويعلمون اصواتهم بتلك الالفاظ الجوفاء ويكررونها مراراً - لان خزانهم خاوية من سواها - وفي الحقيقة هم الذين جنوا على شبابنا الذي يريد أن يظهر للحياة لأول مرة واعتذر عنهم بعذر آخر ان قبل هذا ذلك ان هذا دور الانتقال لا بد فيه من مثل هذه الاطوار ولا بد فيه من ادوار تمثل على مسرحه العمومي ، فالطور الاول يكون على هاته الحالة التي لا يرضاها أولو العقل الراجح والتفكير السديد ، والطور الثاني يكون احسن منه حالا وهكذا الى أن تلو مدارك القوم على قاعدة النشوء والارتقاء .

ولقد يبتغني القاري سؤال لا يحصى لي من الجواب عنه يقول : « بين لنا طريقة اصلاح هذا التفكير الذي لم ترضه لشعبك ولم ترض لشبابه ان يكون حامل رايته فلقد اسرفت في التنديد على هؤلاء الاقوام الذين قصرُوا - في نظرك - ولم يصادفوا عين الصواب ولا كبدا الحقيقة أشر علينا برأيك يا هذا... » هذا سؤال يحتاج في ذهن القاري لأول ما يقرأ هذه الاسطر ، هذا سؤال يثير في النفس حماساً والتهاباً للبحث عن الطريقة التي يجب ان نتبعها في تفكيرنا جميعاً. ولقد رأيتني اضرب عند ما حملت القلم للجواب عن هذا السؤال لان قولي هذا يعد سناً لقانون اصلاح التفكير المغربي ، ولكني اجتري ببعض المسائل التي ربما كانت هي اصول اصلاح هذا التفكير السقيم :

أولاً - التزود من المعلومات التي يحتاج إليها الطالب ليتسنى له البحث اذا اراد ان يعالج موضوعاً من المواضيع الخطيرة التي تحتاج الى دراسات عميقة وبحث وتنقيب . ثانياً - ان يدرس الطالب دراسة جدية وان يكون في ذهنه ملكة يستطيع ان يميز بها بين السقيم والجيد ، ولست من المنكرين طريقة الدراسة القروية العتيقة لاني اعتقد أنها تكون في الطالب ملكة قوية لا ملكة مائعة وان انتقدها بعض من اصحاب الافكار الراقية... ثالثاً - عدم التطلع الى الابحاث الراقية التي لا يحتملها ذهن الكاتب لانه ييخسها حقها لعدم نضوج فكره ولعدم توفر المعلومات التي ينتغيها الموضوع .

رابعاً - تتبع سير الحركة العلمية والفكرية في الشرق عامة وفي مصر خاصة فانها تمنح الطالب دروساً عملية في وجهة تفكيره .

هذا جواب في ظني انه مقنع بعض الاقناع وان كان ليس كافياً ولكن الموضوع لا يسع أكثر من هذا .
ك. ب.